الأنتروبولوجيا الميدانية

دراسة الطقوس الجنائزية خلال العصر الحجري القديم الأعلى بالمغرب

عبد الله بويباون
طالب باحث في سلك الدكتوراه،
مختبر التاريخ والتراث والمجتمع في الحوض المتوسطي
كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة بن طفيل
المغرب

تقديم:

تهتم الأنتروبولوجيا الميدانية بدراسة الوضع الأصلي للجسد أثناء الدفن، وتحضيرات الدفن (كطلاء الجثث بالمغرة الحمراء...)، ووضعية الدفن، اتجاه الدفن، ونوعية الدفن، والأدوات المرفقة للدفن (كعناصر الزينة وعظام الحيوانات والقلادات...)، وتحديد بنية القبر، ورواسب ملئ حفرة الدفن، بالإضافة إلى التدخلات بعد إعادة فتح القبر. ويتطلب فهم ممارسات الطقوس الجنائزية خلال مرحلة ما قبل التاريخ بالمغرب، التمحيص في التفاصيل التي تم تجريدها من المدافن أثناء التنقيب، كالعظام والأدوات المرافقة له، لتوفر الحجج والأدلة للدفن المعتد لمناقشة تطوره.

سنقتصر في هذا المقال على الأنتروبولوجيا الميدانية و المدافن الأولية الفردية (مدفن رقم 5 بإفري ن-نعمار ومدفن رقم 1بإفري ن-نبارود ومدفن 1 بمغارة الحطاب بالشمال) التي مورست فيها الطقوس الجنائزية خلال العصر الحجري القديم الأعلى بالمغرب أي المنتمية إلى الحضارة الإيبيروموريسية[1]، بدءا بدراسة البيانات الأساسية المتوفرة والمتعلقة بجرد العظام أثناء عملية الحفر، مرورا بمعالجة الأسئلة المتعلقة بالهندسة المعمارية للمدافن (دفن ضيق واسع، مسدود – اختفاء عناصر القبر) وصول إلى البحث عن حل لمشاكل أكثر تعقيدا كالمواد المرافقة للدفن –الدفن الفردي–والتلاعب بالعظام عند الدفن.

1– الأنتروبولوجيا الميدانية :

يعكس مصطلح الأنتروبولوجيا الميدانية جوهر وتطور الانضباط نحو البحث الذي يتم تغذيته مباشرة بالبيانات المتعلقة بالمقابر والهياكل العظمية التي تم جمعها أثناء التنقيب، وقد ازدادت أهمية هذا العلم بتزايد علماء الأنتروبولوجيا، واتساع مجال عملهم.

نظم "لوروا كورهان" (Leroi-Gourhan) ما بين سنتي (1974-1975) سلسلة من الندوات المتخصصة لدراسة الدفن وتمت فيها صياغة مفاهيم أساسية لمعالجة العمليات التي تتعلق بالمدافن والقبر بشكل أكثر تحديدا، مثل تلك المتعلقة باتصال التشريحي أو تأثير الجدار بعد تطبيق مبادئ تحليل الطبقات. فقد كانت لفكرة نشر التطورات التقنية والنظرية التي تم انتاجها أثناء التنقيب، فلم يتم تحقيق هذا الهدف فحسب، بل أفضت الندوات التي اجتمع فيها الباحثون من خلفيات مختلفة في بداية التفكير بدراسة الدفن انطلاقا من المنهج الأنثروبولوجي، ففي سنة 1982 نظم "هنري دوداي" (H. Duday) بدعم من"ك. مسات" (C, Masset)

و(J , Leclerc) ندوة علمية حول طرق دراسة المدافن، وحضر فيها مجموعة من الباحثين شاركوا ببياناتهم وأساليبهم والمشاكل التي واجهوها في هذا الميدان، فتم إنشاء مختبر منهجي حقيقي، يتبع فيها برتوكولا خاصا في التنقيب عن المدافن ودراستها، فساهم إلى حد كبير في نشر وتطور مصطلح الانتروبولوجيا الميدانية داخل المجتمع الأثري[2].

تم تفصيل الأهداف والأدوات المنهجية والمفردات الأنتروبولوجيا الميدانية في سنة 1990، بداية بدراسة الوضع الأصلي الذي دفن به جسد الإنسان، وعناصر الزينة، وبنية القبر، والأدوات المرفقة للدفن، ومنذ ذلك الحين أصبح تحليل المعطيات أكثر وضوحا لتقديم فكرة أولية على المدفن والأدوات المرفقة له.[3]

توفر الحفريات الأركيولوجية دراسة دقيقة حول المدافن والهياكل العظمية المكتشفة، التي ترجع إلى مرحلة ما قبل التاريخ والتي تمثل المصدر الوحيد لدراسة التمثلات الجماعية والطقوس الجنائزية والعيش خلال هذه المرحلة[4].

بالنسبة للعالم الأنتروبولوجيا كما هو الحال للعالم الآثار فإن دراسة المدافن تبدأ بالحرص على تجريد العظام وتسجيلها بالتدقيق من أجل دراستها لاحقا، فإن الأنتروبولوجيا الميدانية تقوم بالتعريف الدقيق لكل قطعة من الهيكل العظمي والأدوات المرافقة له، وموقعها واتجاهها وعلاقتها بجميع عناصر القبر، كما تعمل على جمع القياسات والملاحظات اللازمة لتحديد أولي للجنس والعمر عند الوفاة، والتي يجب فحصها لاحقا، اذا كانت العظام تسمح بذلك، هذه الممارسات للتحليل التفصيلي هي الوحيدة التي من المحتمل أن تؤدي إلى تفسير شامل لممارسات الطقوس الجنائزية التي كان سائدة خلال مرحلة ما قبل التاريخ بالمغرب[5].

يستحيل العثور على هذه المعلومات لاحقا عندما لا يتم جمعها في الميدان أثناء الحفر، وبالتالي يظل الفهم العام للدفن محدودا، وغالبا ما يكون من الصعب إثبات قصد إيداع رفات بشرية عمدا. جمع المعلومات في الميدان أثناء التنقيب أمر ضروري للتأكيد طابع الدفن، لكي لا يتم الانصياع أمام التفسيرات المفرطة (طقوس خيالية، أو انكار مطلق لأي عمل جنائزي)، خصوصا للمراحل ما قبل التاريخ[6]. فعندما يتم تسجيل كل البيانات المتعلقة بالمدفن والأدوات المرافقة له في الميدان أثناء التنقيب يسهل على الباحث الأنتروبولوجي، تحليل كل المدافن وتحديد كل ما يتعلق به من نوع الجنس والأدوات المرفقة له.

تم العثور على عدة مدافن أولية التي تعود إلى العصر الحجري القديم الأعلى بالمغرب استفادت من الأنتروبولوجية الميدانية، ومن أهم هذه المدافن، مدفن رقم 5 بإفري ن- نعمار ومدفن رقم 1 بإفري ن-نبارود شرق الريف، ومدفن بمغارة الحطاب 2 بالشمال.

2- مدفن إفري ن-نعمار شرق الريف.

اكتشف علماء الاثار المنتمية للمعهد الوطني لعلوم الاثار والتراث بمشاركة جامعة محمد الأول بوجدة وجامعة اكسفورد عدة مدافن فردية تنتمي الحضارة الإيبيروموريسية ويرجع تاريخها ما بين 15000 و8000 سنة قبل الحاضر.

ومن بين المدافن المكتشفة دفن فردي أساسي لشاب بالغ عمره يتراوح ما بين 21 و24 سنة[7] بموقع إفري ن- نعمار شرق الريف خلال حملة التنقيب التي نظمها علماء الاثار المغاربة والأجانب في إطار البرنامج المغربي الألماني سنة 2002. وهو عبارة عن دفن فردي لشخص بالغ في وضعية الجلوس ملتوية، يقع في الأرض ويبلغ طول الحفرة 50 سم يقابل الجدار الجانبي (شمال -غرب) والمدفن قد تضرر من الكتف والعمود الفقري العنقي والصدري والحوض أما باقي الهيكل العظمي سليم (أنظر الصورة رقم 2).[8] وحفرة المدفن دائرية الشكل إلى حد ما وقطرها 50 سم وعمقها 50 سم. وهي ضيقة فيها حجارة يستند عليها ظهر الميت للوقوف. بالجانب الشمالي من الدفن توجد كومة من الشظايا من الألواح المكدسة، وعلى الجانب الغربي حصاة، وفي الجنوب خليط من الأصداف الحلزون وممزوجة بقطع من الفحم (أنظر الصورة رقم1 و2). وتكون الرواسب باللون الأسود. وعلى المستوى الأيسر العلوي للهيكل العظمي يلاحظ وجود حصاة تأثرت بالنار لونها رمادي مائل الى الأبيض ثم وجود ثلاث حصاة متوسطة الحجم

(الطول-7سم –العرض 4سم – السماكة 3سم) وضعت في الجانب الكتف الأيسر.[9] ويوجد العديد من قطع الفحم على الكتفين وعلى مستوى الوجه الجانبي للقفص الصدري وهيكل حجري مثبت بمثابة دعامة أو ضغط على الطرف العلوي الأيمن.[10] وكتل صغيرة من الحصى، تتجه من الجنوب إلى الشمال التي تحيط المدفن على شكل دائري، وفي الجزء السفلي من الحفرة وضعت حصى صغيرة متفحمة قبل وضع الهيكل العظمي مما ساهم في تضرر الجزء الكامل من الهيكل العظمي الموجودة فوق الصف بفعل النار.[11] وآثار النار واضحة على عدة مستويات من الدفن سواء في العظام الموجودة في الأعلى والأخرى الموجودة في القاعدة.[12]

تتكون رواسب التي ملئت بها الحفرة من بقايا حيوانية والعديد من القواقع الحلزونية (أنظر الصورة رقم 2و3) وكمية كبيرة من الفحم وشظايا الصوان وبقايا بيض النعام وعدة أحجار متفحمة.[13]

وإجمالا فان المدفن الخامس لموقع افري ن –نعمار شرق الريف هو لذكر بالغ يرجع تاريخه إلى 13000 سنة قبل الحاضر في حفرة ضيقة وفي وضعية مقرفصة مع ثني أطرافه السفلى وفي حالة حفظ جيدة عموما مع أضرار بعض أجزاء الهيكل العظمي، وقد لوحظ ان وضعية الدفن الايبيروموريسي مشابهة لإفري ن –نبارود.

3– مدفن إفري ن– نبارود شرق الريف .

اكتشف في مغارة افري ن– نبارود بالريف الشرقي مدفن فردي أساسي لأنثى بالغة في مستوى أثري ايبيروموريسي يرجع تاريخها إلى 12500 قبل الميلاد سنة 1995، في حفرة ضيقة مستلقية على الظهر، في وضعية مقرفصة مع ثني الجانب السفلي(أنظر الصور رقم7) و تسجيل اختفاء بعض المكونات الأساسية للهيكل العظمي خصوصا الجمجمة.[14]

أثناء اكتشاف الهيكل العيظمي تم إجراء عملية التجريد باستخدام أدوات طب الأسنان وفرشاة دقيقة قادرة على ازالة الرمل التي تغطي بقايا العظام من أجل تحديد الحفرة وتسليط الضوء على أكبر قدر ممكن من البقايا الهيكل العظمي.[15] وتتخذ حفرة المدفن شكلا بيضاويا وقطرها حوالي 60 سم وعمقها 40 سم، ويتكون رواسب الحفرة من الحشو الفضفاضة لونها أسود بسبب وجود عدة قطع من الفحم والقواقع الحلزونية متفحمة، خصوصا قاعدة الحفرة التي تلامس العظام الحوض والقدمين. واتجاه الهيكل العظمي محور شمال –جنوب ومستلقي على ظهره مع وضعية مقرفصة على شكل الجلوس (الشكل 7) وفي حفرة ضيقة.[16]

يستلقي الدفين على الظهر في وضعية مقرفصة مع ثني الأطراف السفلى، مشابهة للمدفن رقم 5 بموقع إفري ن–نعمار شرق الريف، يمكن اعتبارها ممارسة جنائزية لساكنة الايبيروموريسية على الأقل في الريف الشرقي، والعظام في حالة حفظ جيدة واختفاء العديد من العظام بسبب تدخل حيواني أو بشري.[17]

4– مغارة الحطاب 2 بالشمال .

اكتشفت الحفريات الأثرية التي اجريت بمغارة الحطاب 2 بالشمال سنة 2002 عن دفن فردي أساسي في مستوى الإيبيروموريسي من جنس ذكري يتراوح عمره ما بين 25 و30 سنة، ويرجع تاريخه إلى ما بين 8900و 11000ق.ح.

تقع مغارة الحطاب 2 بمنطقة الريف شمال المغرب على بعد حوالي 10 كيلومتر شمال شرق واد لاو، يبلغ عمق الكهف حوالي14 مترا وعرضه 12 مترا[18]. يوجد داخل الكهب رواسب كربونية طينية تحتوي على صناعات حجرية وعظام حيوانية وبقايا الفحم، ودفن الجسد مثني على الجانب الأيسر وهو في حالة جيدة وكامل تقريبا.[19] والأسنان الأمامية للفك العلوي غير مكتملة تم فقدانها قبل الوفاة إما بسبب المرض أو الازالة المعتمدة، نظرا استئصال القواطع العلوية الأمامية كانت شائعة خلال المرحلة الإيبيروموريسية (أنظر الصورة رقم 3و 5).[20]

ومن بين الأدوات المرفقة للدفن مخروط صغير من النوع الإيبيروموريسي وضع على الفخذ الأيمن للهيكل العظمي، وقذيفة الموريكس وهي القشرة البحرية الوحيدة التي وجدة في المدفن وعظام معزول للحيوان ثدي كبير[21]، وعظام الغزال والفك السفلي للثعلب وقطعة صغيرة واحدة من الخزف وأحجار الصوان وأحجار الجيري الدقيقة وبقايا النباتات المتفحمة(أنظر الصورة رقم 5) .[22]

يمكن ان نطرح ثلاثة فرضيات في ما يتعلق بأهمية وجود الفحم بمدافن فردية خلال العصر الحجري القديم الأعلى بالمغرب.

أ-تحليل عناصر النباتات التي يتم ادخالها عرضيا لسد الحفرة أثناء ملئها.

ب- تحليل شبه كامل للتابوت .

ج – وجود حرائق طقسية .

إن الفرضيتين الأوليتين لا تتوافق بشكل أفضل مع الواقع،وبالتالي يمكننا ترجيح الفرضية الثالثة، اذ تم العثور عن ممارسة هذه الحرائق الطقسية في ثلاثة مقابر فردية خلال المرحلة المذكورة بالمغرب (إفري ن-نعمار، إفري ن-نبارود، مغارة الحطاب 2 بالشمال).

اذا قبلنا الفرضية الثالثة بوجود حرائق طقسية يجب ان تكون قد حدثت بشكل أساسي في قاع الحفرة قبل الدفن الفعلي، أو حدثت في مكان قريب وتم نقلها ووضعها في حفرة الدفن، وبالتالي تدخل ضمن تحضيرات الدفن، واستمرت هذه الطقوس خلال مرحلة ما قبيل التاريخ بالمغرب، اذ نجد العديد من المدافن التلية بجانبها غرف صغيرة تتم فيها حرائق طقسية.

خاتمة .

على الرغم من بداية التنقيبات على المدافن خلال النصف الأول من القرن 20 بالمغرب، الا انها لم تصبح موضوعا حقيقيا للدراسة الا في النصف الثاني من القرن 20 وبداية القرن 21 بعد ظهور نظام مستقل يتطور نحو قراءة تفسيرية كاملة للدفن بجميع المراحل وجميع أنواع المدافن وهي الانتروبولوجية الميدانية التي تهدف إلى استعادة المظهر الأصلي للجسد أثناء الدفن، والتدخلات التي طرأت على المدفن، وترتيب الأدوات المرفقة له، وتفسير الطقوس الجنائزية.

دفن رقم 5 بموقع إفري ن-نعمار شرق الريف في مرحلة التجريد الصورة 1:

Abdelwahid BEN-NCER... ,. **Étude de la sépulture…**, op.cit, p. 107.

الصورة 2: القواقع الحلزونية على الكتف الأيمن للدفن رقم 5 بإفري ن-نعمار شرق الريف.

Abdelwahid BEN-NCER... ,. **Étude de la sépulture…**, op.cit, p. 107.

الصورة 3: قلع الأسنان الأمامية للفك العلوي للدفن رقم 5 بإفري ن-نعمار شرق الريف.

Abdelwahid BEN-NCER... ,. **Étude de la sépulture…**, op.cit, p. 108.

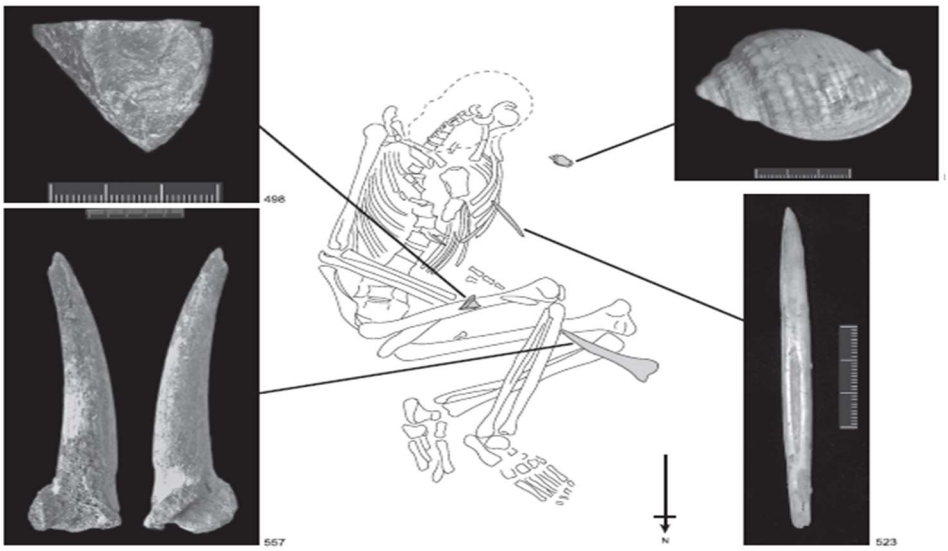

الصورة4: وضعية الدفن الفردي بمغارة الحطاب 2 بالشمال والأدوات المرفقة له.

Nick Barton, Abdeljalil Bouzouggar..., **Human Burial Evidence from Hattab II**..., op.cit, p. 199.

للدفن الفردي بمغارة الحطاب 2 بالشمال. الأمامية الأضراس قلع :5الصورة

Nick Barton, Abdeljalil Bouzouggar..., **Human Burial Evidence from Hattab II**..., op.cit, p. 100

الصورة 6: وضعية الدفن بإفري ن-نبارود شرق الريف.

Abdelwahid BEN-NCER., **Étude de la sépulture ibéromaurusienne**..., ..., op.cit, p. 179.

الهوامش:

[1] يطلق هذا الاسم على الانسان الذي كان مسؤولا عن الحضارة الايبيروموريسية، وكانت تسود في البداية بوجود نفس الحضارة بالأندلس وهي (الايبيرو) وبوهران وهي الموريسية الا أن اتضح في الاخر أن الأمر يتعلق بحضارتين مختلفتين تمام الاختلاف. وقد اقترح البعض تسميتها الإيبيروموري أو الايبيرو مغربي. وقد عاش هذا الإنسان في شمال افريقيا في المرحلة الواقعة بين 20 ألف و8 ألف سنة. وقد أعطت العديد من المواقع الساحلية مجموعة هامة من البقايا الإنسانية المرتبطة بهذه الحقبة.كمغارة الحمام بتافوغالت.

[2] Michel Lauwers et Aurélie Zemour,. **De l'anthropologie de terrain à l'archéologie de la mort**: **histoire**, **concepts et développements**, **actes des** XXXVIe rencontres internaationes d'archéologie et d'histoire d'Antibes, actes des rencontres 13-15 octobre 2015, pp. 25.

[3] Ibidem.

Duday Henri, Courtaud Patrice, Crubezy Éric, Sellier Pascal, Tillier Anne-Marie., **L'Anthropologie « de terrain** [4] **» : reconnaissance et interprétation des gestes funéraires**. In: Bulletins et Mémoires de la Société 30.d'anthropologie de Paris, Nouvelle Série. Tome 2 fascicule 3-4, 1990. P

Duday Henri..., **L'Anthropologie « de terrain …**,op.cit, p. 30.[5]

Ibidem.[6]

Abdelwahid Ben-Ncer, Abdeslam Amrir, Abdeslam Mikdad, et Josef Eiwanger,. **Étude de la sépulture V d'Ifri** [7] **n'Ammar** (**Rif Oriental**), Hommage à Joudia HASSAR -BENSLIMANE, TOME 1, RABAT, 2015. p104.

.97Ibid., p. [8]

Ibid., p. 98.[9]

Ibid., p. 99.[10]

102. p. Ibid.,[11]

Ibid., p. 104 .[12]

.104 Abdelwahid Ben-Ncer…, **Étude de la sépulture V d'Ifri n'Ammar…**, op.cit, p.[13]

Abdelouahid BEN-NCER., **Étude de la sépulture ibéromaurusienne 1 d'Ifri n'Baroud** (**Rif oriental**, [14] **MAROC**). Antropo, 7, 2004, p. 178. www.didac.ehu.es/antropo.

Ibid., p. 179.[15]

Ibid., p. 180.[16]

, p. 185.... Abdelouahid BEN-NCER., **Étude de la sépulture ibéromaurusienne 1**[17]

Rowena Gale, Simon Nick Barton, Abdeljalil Bouzouggar, Louise Humphrey, Peter Berridge, Simon Collcutt, [18] Schwenninger, **Human Burial Evidence from Hattab II** Edward Rhodes and Jean-Luc Parfitt, Adrian Parker, **Continuity in Late Pléistocène–Holocene Mortuary Practices in Northwest Cave and the Question of Africa**, Cambridge Archaeological Journal /Volume 18 /Issue 02 /June 2008, p. 197.

Ibid., p. 199.[19]

..200p. Ibid., [20]

.204 p. Ibid.,[21]

.205 , op.cit, p. … **Hattab II** , **Human Burial Evidence from**...Nick Barton, Abdeljalil Bouzouggar[22]